أنيس صايغ عن أنيس صايغ: رحلة نصف قرن في العمل الفلسطيني والعربي (الاخيرة)

أم الشاعر خليل حاوي كانت ترسل له دجاجة «محشوة» الى بريطانيا.. ومطارات الأعراب مفتوحة فقط للأغراب

طبريا جنة العالم.. وبيروت أحب المدن.. تغيرت وصارت تحتاج لدليل أما كمبردج فأجمل بقعة غير عربية

أنيس صايغ مفكر وكاتب فلسطيني معروف، تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت وجامعة كامبريدج البريطانية، وعمل استاذا زائرا في الجامعة نفسها، وعميدا لمعهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة، وكان مدير مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت، ورئيس تحرير مجلة «شؤون فلسطينية» و«اليوميات الفلسطينية»... وعمل في اكثر من موقع في الجامعة العربية، وقام بعدد من المبادرات الثقافية مثل اطلاق مشروع الموسوعة الفلسطينية.. واصدر اكثر من دراسة وكتاب منها «لبنان الطائفي»، و«نصف قرن من الاوهام»، و«بلدانية فلسطين المحتلة»، و«الهاشميون والثورة العربية»، و«الهاشميون وقضية فلسطين»، واخيرا مذكراته التي تنشر «القدس العربي» مقتطفات منها.

«القدس العربي»

دمشق وعمان

لا عوائق تذكر عند التنقل بين بيروت ودمشق. فهو يجري براً إلا حينما كانت الطريق مقطوعة في بعض مراحل الحرب الأهلية حين كنت أذهب إلى دمشق جواً، لكن تجربة إحدى الزيارات كانت هي الأخرى تحفل بالعوائق. كنت قد أخذت موعداً مع طبيب العيون في لندن بتاريخ محدد. وحجزت مقعدين لزوجتي ولي على الطائرة الفرنسية التي تطير من دمشق إلى باريس في اليوم الأخير لمفعول سمة الدخول، بحيث أنتقل من باريس إلى لندن حال وصولي مطارها. وبحيث أنزل في مطار هيثرو في لندن قبل انتهاء الفيزا بساعات قليلة. وكانت الحرب في لبنان على أشدها. أوصلتنا سيارتنا إلى شتورة. وهناك طلبت من مرافقي العودة إلى بيروت قبل حلول الظلام وأخذت تاكسي إلى دمشق. لكن موظف الحدود في الجانب السوري سألني أين بطاقتي الصحافية. استغربت السؤال. وتذكرت أن «المهنة» في تذكرة الهوية اللبنانية التي صدرت سنة 1958 أي قبل عشرين سنة من الواقعة تقول إني «صحافي». ولم أكن أحمل بطاقة لأنني عملياً لم أكن صحافياً بالمعنى الدقيق وإن كنت يومها أترأس تحرير «شؤون فلسطينية» ورفض الموظف أن يسمح لي بدخول سورية مع أني كنت سأدخلها ترانزيت إلا بعد أن يرى بطاقتي الصحافية. وخطر لزوجتي أن تبرز له شهادة بالوسام السوري الذي أحمله، وهو أرفع وسام في القطر. فاحترمنا الرجل وسمح بعبور الحدود. وذهبنا رأساً إلى المطار. كان يجب عليّ أن ألحق بالطائرة وإلا تعذر الوصول إلى لندن في الموعد المحدد. وأجريت كل المعاملات. وذهبنا إلى قاعة المسافرين ونقلت الحقائب إلى الطائرة، ونودي على الركاب. وإذا بمندوب الشركة، الفرنسي، يختار راكباً دون آخر. وبدا أن عدد المستعدين للسفر أكثر من عدد المقاعد الفارغة. وحاولت أن أفهمه أن معاملاتي قانونية وأني حجزت منذ أيام وأن الفيزا تنتهي في المساء وأن لديّ موعداً في اليوم التالي مع طبيب مختص، إلخ. ولم يفهم. لم يرد أن يفهم. وصدّني بفظاظة. مرة أخرى لجأت زوجتي إلى براءة الوسام. ذهبت بسرعة إلى مكتب مدير أمن المطار وعرّفته بنفسها وأخبرته بالقصة. فجاء فوراً وطلب مندوب الشركة بلهجة الأمر: أوقف ذهاب الركاب إلى الطائرة فوراً. وأنزل جميع الركاب. واعمل على دخول د. صايغ وبعد ذاك أسمح لك باستئناف عملك. وهذا ما حصل. ولا أزال أذكر كيف تحوّل الموظف الفرنسي المتعجرف إلى نعجة ذليلة. وفهمت فيما بعد أنه كان يتقاضى رشاوى ممن يسمح لهم بالسفر على طائرته لندرة الأماكن الخالية فيها.

سبق أن ذكرت في فصل سابق منعي من دخول الأردن لحوالى ست عشرة سنة. ولما سُمح لي أعطيت وعداً بعدم حصول أي إزعاج على الحدود أو في المطار، وحسب التعبير الذي استعملته آنذاك ألا يطلب مني أن آتي في اليوم الثاني «لشرب فنجان قهوة في مديرية الأمن». وفعلاً زرت الأردن منذ ذلك الحين عشرات المرات وكان الدخول والخروج طبيعيين. إلا في حالتين اثنتين.

دعيت في خريف 1949 لمرافقة الدكتور قسطنطين زريق وحضور حفل تكريم له في قاعة محاضرات الجامعة الأردنية. وهبطت الطائرة في التاسعة مساء. وأخذنا إلى صالون الشرف. وأنجزت معاملة زريق بعد دقائق وأعيد إليه جوازه. وبقينا ننتظر إنجاز معاملاتي وإعادة الجواز. ودقت ساعة القاعة الثانية عشرة ونحن لا نزال ننتظر. وحاولت إقناع الدكتور بالذهاب إلى الفندق ليرتاح وكان في أواخر عقده التاسع. وأصرّ على الانتظار معي. فتوجهت إلى مدير أمن المطار وسألته عن سبب التأخير. وأخذ يمهلني ويحدثني في أشياء تافهة وليست ذات بال وكأنه يحاول إلهائي. وفي الواحدة صباحاً وصل الجواز وقدمه ضابط الأمن إليّ. قلت له أتسمح لي بسؤال يبدو سخيفاً ولكنه ملحّ: لماذا هذا التأخير مع أني آتي وأخرج منذ أكثر من عشر سنوات بدون أي سؤال أو تأخير؟ أجاب ببرود: أتسمح لي بسؤال أكثر سخافة ما هو موقفك من اتفاق أيلول (سبتمبر)؟ قلت: كتبت كتاباً ضده. قال: إذن عرفت السبب. قلت: لم أكن أعرف أن مطار عمان يخضع لسلطة عرفات. ولحقت بالدكتور زريق لنذهب معاً إلى الفندق، وكان في حال صحي ومعنوي سيء.

نوادر المطارات العربية

توجهت ذات يوم عام 1990 إلى العراق عن طريق مطار عمان، لأن الخطوط الجوية مع بغداد كانت مقطوعة من بيروت ودمشق. وبدلاً من أن تتحرك الطائرة في الثامنة صباحاً تأخرت حتى الثامنة مساء. ووصلت بغداد بعد أن كانت اجتماعات اليوم الأول لمشروع الموسوعة العربية التي عيّنت مستشاراً لها قد انتهت. ومع هذا كان الموظفان من وزارة الثقافة اللذان كلفا باستقبالي في المطار لا يزالان في انتظاري. وأسقط في يدي وفي أيديهما حينما أصرّ الضابط المسؤول عند باب «الخروج» على عدم السماح لي بدخول العاصمة لأني لا أحمل شهادة ضد مرض السيدا. لم أكن أعلم أن المطار إلى العراق يجب أن يحمل مثل هذه الشهادة. لا شركة السفر ولا السفارة أبلغاني بذلك. سأل أحد المرافقين الضابط: إذن ما العمل؟ أجاب: نجري للأستاذ فحص دم. وينتظر في المطار يومين أو ثلاثة حتى تظهر النتائج. لكن لما عرف الضابط سبب مجيئي إلى العراق تبدد خوفه على الشعب العراقي من أن أحمل له جراثيم هذا المرض الخطير وسمح بدخولي.

أختم هذه السلسلة من «النوادر» المؤلمة عن حال المسافر العربي في مطارات وطنه الشاسع بواقعة من نوع آخر حصلت صيف 1987 في المملكة العربية السعودية. وصلت طائرة «الميدل إيست» إلى مطار جدة في حوالي السادسة مساء ليأخذني مندوب وزارة الحج والأوقاف إلى الطائف حيث سنعقد اجتماعاً للمجلس الاستشاري للموسوعة الفلسطينية برئاسة الوزير الشيخ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع. واستقبلني المندوب في صالون كبار المسافرين. وتحولت معدتي إلى بحيرة من السوائل إذ توالت أقداح القهوة والشاي والهال والماء زهر وعبارات الترحيب والتكريم. وبعد ساعة أخبرني أنه لن ينتقل بي إلى الطائف إلا بعد أن تصل الطائرة القادمة من دمشق تحمل عدداً من أعضاء المجلس. ووصلت الطائرة بعيد منتصف الليل. وركبنا سيارات «التشريفات» الفخمة. وقبل أن يتحرك الموكب المهيب، بحرسه وأبواق سياراته لفتح الطريق، تنبه مسؤول الضيافة الى أنني مسيحي. إذن فنحن لا نستطيع أن نتوجه إلى الطائف عبر الطريق المار في جوار مكة المكرمة. علينا أن نسلك طريقاً آخر طويلاً. وكان يشاركني في السيارة المحامي الفلسطيني عبد المحسن أبو ميزر. وأخذ يحدثني عن نظرية تثبت أن حجر الكعبة الأسود إنما هو من حجارة طبريا السوداء. وحينما وصلنا الفندق المعدّ لإيوائنا في الطائف في الثالثة صباحاً كان أبو ميزر لم ينه بعد حديثه المفصل. وأخذ زملائي ينهالون عليّ باللوم: لماذا لا تعلن إسلامك يا أستاذ وتريحنا من عناء هذا الطريق الطويل؟ أجبتهم أني لو فعلت ذلك لخسرت رفقة أبو ميزر!

يلاحظ القارئ أن جميع المطارات ونقاط الحدود المذكورة في هذا الفصل إنما هي عربية وعلى الأرض العربية وتتعامل في الغالب مع المسافر العربي. حاولت كثيراً أن أتذكر إزعاجات حصلت لي في مطارات أجنبية، في آسيا وأوروبا وأميركا الشمالية حتى أنفي عن شعبنا الاتهام بأنه فريد في ممارسة هذه المنغصات التي كثيراً ما تفقد السفر متعته وتسلب من المسافر راحته. ولم أتذكر حادثة واحدة من عدة مئات من حالات السفر بين تلك المطارات وعبر حدود تلك الدول. ومرة أخرى أقول إني لا أزعم أن هذه الإزعاجات كانت موجهة ضدي شخصياً أو لظروف معينة، بل هي من النوع العام والشائع الذي يختبره آلاف المسافرين العرب يومياً في هذا المطار أو ذاك. حتى إني فكرت مرة أن أصدر كتاباً أجمع فيه شهادات العشرات من الكتّاب العرب عن معاناتهم في المطارات وعلى الحدود العربية. ولو فعلت ذلك لكان كتاباً شيقاً وطريفاً. ولكان مُنع في سائر الأقطار العربية!

ومن هنا أطلقت على المطارات العربية تعبير «البوابات» التي تُشرّع أمام الأغراب وتوصد أمام الأعراب!

طلبات الناس الثقيلة

تترافق مع ذكريات المطارات ذكريات من نوع آخر مرتبطة بالسفر والتنقل. إنها «تثقيل» بعض الناس على المسافر بأن ينقل لهم أغراضاً لقريب يقيم في البلد الذي يتجه المسافر إليه. وهي من العادات العربية البشعة والتي كثيراً ما تكون محرجة. وقد تعرضت لهذا النوع من الطلبات المزعجة، لبّيت القليل منها واعتذرت عن تنفيذ الكثير. فمنذ أن ركبت الطائرة لأول مرة في حياتي، من بيروت إلى القاهرة 1954 طلبت إليّ سيدة صديقة للعائلة أن أحمل معي إلى ابنتها المقيمة في مصر «تنكة» زيت. فعلت ذلك خجلاً. وتحملت كل متاعب عمل مثل هذا. ومرت الأيام، وكرّت طلبات الأصدقاء والصديقات، ومعظمها من أمهات إلى أبنائهن أو بناتهن. وكلها تتعلق بأمور كمالية يجوز الاستغناء عنها. وأكثر ما حصل لي بهذا الخصوص حينما كنت أتنقل أسبوعياً بين بيروت والقاهرة، أو شهرياً بين بيروت وتونس.

عشرات القصص في تجارب لا أنفرد بها. ألم ترسل أم الشاعر خليل حاوي مع أحد المسافرين إلى كمبردج دجاجة محشوة «من إعدادها هي نفسها»، وكأن لا دجاج في كمبردج. وكان أن تأخر المسافر في تسليم الأمانة فأكل خليل الدجاجة وقد فسدت فتسمم ونقل إلى المستشفى؟ أما أنا فوصلت إلى قرار لا أحمل تواصي إلا إذا كانت أدوية أو أدوات علاجية.

والأخطر من طلبات مثل هذه أن تكون المادة المطلوب نقلها خطرة سياسياً أو أمنياً. وكنت أعتذر عن تلبية طلبات حمل أغراض لا أطمئن إلى محتوياتها.

القدس

صرفت سنوات الدراسة الثانوية الثلاث في القدس (خريف 46 حتى خريف 47) وصيدا (شتاء 48 حتى صيف 49). ودخلت المدينتان حياتي عن طريق الفرض والحاجة. ولم تدخلا عن طريق الرغبة الذاتية والاختيار الحر. وربما كان لهذه الظروف أثرها في تحديد موقفي من المدينتين خلال إقامتي فيهما ثم بعد مغادرتهما. يضاف إلى ذلك ظروف أخرى، الابتعاد عن الأهل لأول مرة والإقامة في مدرسة داخلية، ونشوب الاضطرابات ونمو الخطر الصهيوني وقيام دولة العدو واغتصاب الأرض وتشريد السكان ومن بينهم أسرتي، وتحول إنسان فلسطيني مثلي من مواطن يترقب ساعة تحرير بلده إلى لاجئ يحلم بالعودة إلى وطنه.

الحكم على بلد إنما هو حاصل رضى الإنسان على ذلك البلد وسعادته فيه. التجربة الحية هي التي تجعلك تحب بلداً أكثر من غيره. كن سعيداً ترَ العالم جميلاً. لذلك قد أكون مخطئاً في تقييمي لمدينتيّ القدس وصيدا. وقد يراهما غيري على عكس ما رأيته فيهما. وسيكون معه كل الحق في ذلك بقدر ما معي أنا بعض الحق.

سئل المفكر الفلسطيني إدوار سعيد مرة في مقابلة تلفزيونية عن القدس. فلم يبدِ حماسة ولا إطراء. وثار الناس عليه واتهموه بالعقوق. بل وصل التهجم عليه حد التخوين. لذلك، وحتى لا ينالني ما نال ذلك المفكر قبل رحيله، سأحاول أن أكون دبلوماسياً ولبقاً في الإفصاح عن مشاعري تجاه القدس أو صيدا أو أي مدينة أخرى لها عشاقها الكثر. أكتفي بالقول إن جمالات هاتين المدينتين المتعددة الألوان والأشكال موجودة بوفرة لكن عينيّ لم تظفرا برؤيتها لضعف البصر فيهما ليس إلا!

كانت تحركاتي في القدس محدودة مثل أي تلميذ داخلي تقع مدرسته على جبل على أحد أطراف المدينة. ولولا المشوار الأسبوعي المفروض علينا إلى الكنيسة أيام الآحاد لقلت إني لا أعرف القدس خارج حي القطمون، ذلك الحي الراقي بسكانه ومبانيه وحدائقه وشوارعه، الذي استأجر شقيقي يوسف غرفة عند بعض سكانه. وكان يوسف يأخذني بين الحين والآخر إلى غرفته أو إلى بعض المطاعم والمقاهي والنوادي مساء يوم السبت. وكانت هناك زيارات أخرى إلى مبنى جمعية الشبان المسيحية، أحدث مباني القدس الحديثة وأجملها بقاعاته ومكتبته وبرجه العالي، في مواجهة فندق الملك داود الذي اتخذت سلطات الانتداب جانباً من مبناه كمقر للدوائر والوزارات المختلفة في فلسطين، والذي استهدفه الإرهاب الصهيوني وفجّر بعض أجنحته وسقط أكثر من تسعين من الموظفين المدنيين، عرباً ويهوداً وبريطانيين وبينهم بعض رؤساء الإدارات وكبار الموظفين.

لم أعرف من القدس أكثر من ذلك. بالطبع زرت المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة إسلامياً ومسيحياً، وزرت الكلية العربية حيث كان شقيقي منير طالباً في سنته الأخيرة. لكنها كانت زيارات خاطفة يشترك فيها العشرات من الطلبة تحت إشراف الأساتذة. وما بقي في الذاكرة هو المدرسة وقسوة الحياة فيها، والبرد القارس في الشتاء، وما كان البرد يتركه من ألم في أصابعي، وعدم التعود على بعض تقاليد المدرسة وقوانينها الشديدة، واضطراري لحصر مصاريفي في التسلية بسبعة قروش فقط في الأسبوع هي كل ما كان أمين صندوق المدرسة، الأستاذ «زحلان» يعطيني كل يوم سبت.

بيروت وبيروتي

وقعت بحبها منذ النظرة الأولى. إنها بيروت. جئتها مرة أو مرتين في النصف الأول من ثلاثينيات القرن الماضي. وكنت طفلاً. ولا أذكر منها ولا عنها شيئاً. بل لا أعرف أني جئتها إلا من أحاديث الأهل فيما بعد. وفي صيف 1938 كانت الزيارة الأولى الراسخة في الذاكرة. وصلناها، الوالدان والأشقاء، في القطار من دمشق التي كنا قد عرّجنا عليها وصرفنا أسبوعاً في ضيافة إحدى عماتي التي لا أذكر عنها الآن سوى أرغفة الصفيحة أو اللحم بعجين التي كانت تتقن صنعها على الطريقة الشامية. وكان القطار وسيلتنا أيضاً للسفر بين سمخ جنوب طبريا ودمشق، مروراً بجسر المجامع وبدرعا. وسفر القطارات متعة لا تقدّمها وسائل النقل الأخرى، لا السيارة ولا الطائرة ولا السفينة.

أقمنا في منزل آل المعلوف، أقدم أصدقاء الأسرة من اللبنانيين، منذ أن تزامل شقيقي يوسف مع ثاني أبناء المعالفة، رشدي، في مدرسة الأميركان في صيدا. وكانت الشقة تحتل الطبقة الثالثة من بناية طقوش التي لا تزال قائمة حتى اليوم في شارع جان دارك في منطقة الحمراء وبالقرب من الجامعة الأميركية حيث كان ثلاثة من أشقائي وثلاثة من المعالفة يدرسون آنذاك. وكانوا يذهبون في الصيف إلى ضيعتهم الصغيرة عين القبو في منطقة المتن الشمالي بين بسكنتا وكفرعقاب. ولذلك نزلنا في شقتهم بدل أن ننزل في فندق، إلى حين تم استئجار منزل ريفي صغير في تلك الضيعة مكثنا فيه إلى آخر فصل الصيف.

بدا كل شيء في غاية الروعة والجمال في بيروت. خبزها ولبنتها الطازجة من محلات ضومط وأجبانها البيضاء وفواكهها وتبّولتها وكشكها الذي لم نكن نعرفه في فلسطين... كل شيء لذيذ. أذهب مع أبي في الصباح لشراء ما نحتاج إليه من أطعمة. ونلعب في الشارع الذي لم يكن مكتظاً بالناس ولا بالسيارات لأن الجامعة ومحيطها في عطلة الصيف وقد فرّ الجميع إلى الجبل، وندخل الجامعة من بابها الكبير. تأخذنا الرهبة أمام مبانيها الشامخة المائل لونها إلى الصفار. هنا يدرس يوسف وهنا يدرس فؤاد وهنا يدرس فايز. وهنا سأدرس يوماً ما. والحدائق والأشجار والطرقات الملتوية من بناية الكوليدج ذات الساعة التي لا تخطئ إلى بناية الكيمياء والفيزياء على كورنيش البحر. نروح ونجيء ولا سيارات نخاف منها ولا أساتذة وطلاب بل متفرجون ومتنزهون مثلنا. نشعر أننا كبار لأننا نسير حيث سار الكبار منا. ونشعر أننا صغار لأن كل من يصادفنا على الطريق يبتسم لنا وبعضهم يسألنا عمن نكون ومن أين أتينا.

حتى بناية طقوش التي نقيم في إحدى طبقاتها كانت مصدر تسلية لي. تولدت فيّ هواية جديدة أحصي عدد الأحذية والبوابيج المصفوفة أمام أبواب الشقق في الطبقتين الأولى والثانية كلما صعدت السلم أو نزلته. ثم «أحزر» والدتي أو من أجده معها في البيت عن العدد، وأعد الفائز بجائزة كان الكل يصر أن تكون قبلة على خده أو خدي أنا. ولعل في هذه الإحصاءات الطفولية ولد حرصي على الدقة والتقيد بالأرقام والتواريخ الصحيحة ورفض التخمينات والتعميمات الإجمالية. كان الأستاذ أربري، رئيس قسم الدراسات المشرقية في جامعة كمبردج، يقول إن أسوأ ما في التقديرات العربية هو الإجمال بدل التحديد بدقة. ويقول إنه سأل طالباً للدكتوراه عن تاريخ وفاة ابن خلدون فأجابه ببساطة من زمان! وسأل آخر عن طول نهر النيل فأجابه طويل جداً! وكانت أرقام الأحذية والبوابيج عند كل باب تتراوح بين الستة والعشرة. وما زال أبناء عائلة طقوش يملكون عدداً من محال بيع الزهور في جان دارك وفي أماكن أخرى من بيروت الغربية، وما زالوا أسياد هذه التجارة الجميلة التي هي بحق أجمل التجارات بعد تجارة الكتب. وأينما كنت في لبنان لا أشتري الزهور إلا من أفراد هذه الأسرة.

المدينة المتغيرة

أعود إلى بيروت. أقمت فيها إقامة متواصلة من 1949 حتى 1959. ثم عدت إليها 1964، ولا أزال أسكن فيها، في المبنى نفسه في شارع الكومودور، بالرغم من تجوالي المتواصل مع زوجتي في معظم الأحيان ولوحدي أحياناً قليلة في أطراف الأرض الشاسعة. ومنها تردد متواصل على مصر 1970ـ1979، وعلى الكويت 1979ـ 1980 ، وعلى تونس 1980ـ1982، وعلى دمشق 1982ـ1993. لكني كنت أصرّ على أن تبقى الإقامة الرسمية في بيروت مهما تعددت المهام خارج لبنان. وحتى الحرب الأهلية – لم تستطع بأخطارها وضحاياها ونيرانها أن تقتلعني من هذه المدينة الجميلة مثلما اقتلع الإرهاب والاغتصاب الصهيونيان العائلة من طبريا، المدينة الأجمل. صمدنا، زوجتي وأنا، لأننا نحب بيروت، بالرغم من عروض كثيرة جاءت للعمل والإقامة في بريطانيا ومصر وتونس، وبالرغم من ضغوط عليّ لنقل الموسوعة إلى حيث أريد خارج لبنان منذ 1982وخاصة عمان أو قبرص أو دمشق.

بعد أكثر من خمسين سنة من الإقامة في هذه المدينة أستطيع أن أقول إن بيروت التي كنت أعرفها هي غير بيروت الحالية. أصبحت أحتاج إلى دليل يرشدني إلى حيث أريد أن أذهب. أتجول في شوارع المدينة كالغريب أو السائح.

كل المدن تتبدل أو تتمدد مع الأيام. تمددت القاهرة ودمشق وعمان، مثلاً، منذ أن عرفت كلاً منها قبل عقود. أما بيروت فإنها تبدلت أكثر مما تمددت. والذي منع تمددها هو وضعها الجغرافي بينما عملت عدة ظروف وتقلبات على فرض التبدل عليها، وأهمها تعمير ما تهدم في عقديّ الحرب الأهلية، خاصة وأن سياسة التعمير ركّزت على الحجر أكثر مما ركّزت على الإنسان نفسه الذي هو أهم من الحجر. من هنا أصبحت غريباً عن بيروت السنوات الخمس عشرة الأخيرة، بقدر ما كنت خبيراً بها قبل نشوب الحرب 1975.

بيروتي هي رأس بيروت، ومحوره شارع بلس حيث الجامعة الأميركية والشوارع الثلاثة المتفرعة عنه، السادات وجان دارك وعبد العزيز، وصولاً إلى الحمراء. وهي أيضاً عين المريسة، حيث أقمت مع العائلة وقبل زواجي (1950ـ1959) . وأيضاً في شارع الكومودور حيث أقيم منذ عودتنا إلى لبنان 1964. في هذه المنطقة عشت ودرست وتجولت ولهوت وجالست الأصدقاء والرفقاء وكتبت ونشرت ونشطت في حقلي الصحافة والتعليم وحاضرت وحضرت الندوات واللقاءات. في هذه المنطقة كانت تجاربي الحلوة، والحياة الهنيئة، وهي نقطة الارتكاز في ذاكرتي البيروتية.

كمبردج

إذا كانت طبريا هي جنة العالم، وكانت بيروت أحبّ المدن العربية خارج فلسطين، فإن كمبردج هي بالفعل أجمل المدن خارج الوطن العربي.

كانت كمبردج المحطة الأخيرة من شهر عسل امتد عشرين يوماً، من بيروت إلى لندن، مروراً بأثينا وروما وجنيف. وصلناها، زوجتي وأنا، في العشرين من أيلول (سبتمبر) . وقضينا فيها باستثناء إجازات في أوروبا وعودتين صيفيتين إلى لبنان خمس سنوات متواصلة. ثم أخذنا نعود إليها، ولو لمدة أسابيع في السنة، في كل صيف منذ 1965 . وإذا كان صحيحاً أن من يشرب من مياه النيل مرة لا بد أن يعود إلى مصر مراراً، فإن من يشرب الشاي على ضفاف نهر الكام مرة لا بد أن يشتاق إلى شرب الشاي هناك كلما سنحت له الفرصة. والكام نهر صغير غير صالح للملاحة إلا للقوارب الصغيرة. أهميته الوحيدة أن بلدة بنيت على ضفتيه منذ قرون وسميت على اسمه كمبردج أي الجسر فوق نهر الكام.

كمبردج مدينة تحتضن جامعة، ولولا الجامعة لما كان للمدينة من أهمية. وقد نزعت الجامعة من المدينة كل شيء غير جامعي. فلا مصانع ولا معامل ولا حانات صاخبة ولا شركات كبرى، ولا سهر عاما بعد العاشرة والنصف مساء. تغادر الباصات الساحة الرئيسية التي تتوسط المدينة في ذلك الموعد ليتجه كل منها إلى ناحية من نواحي المدينة. ومن يريد أن يسهر إلى ما بعد ذلك عليه أن يعود إلى بيته ماشياً على قدميه إذا لم يكن عنده سيارة خاصة وقليلون هم أصحاب السيارات الخاصة أو دراجة هوائية.

طبعت الجامعة المدينة بطابعها العلمي التقليدي، وهي محور اقتصاد المدينة ومحور معالمها والمؤثر الأكبر في مهن سكانها وأعمالهم وحياتهم العامة. ولا شك أن الجامعة هي التي أعطت المدينة شهرتها البريطانية والعالمية، وأهلّتها لأن تكون معلماً سياحياً ومقصداً تربوياً ومركزاً رائداً للثقافة والنشر والاختراعات والاكتشافات وموقعاً دائماً في قوائم رابحي جائزة نوبل.

كمبردج، المدينة، حديقة واسعة في عشرات الكيلومترات المربعة من الأزهار والجنائن والحقول والغابات حوالي النهر وجداوله وتفرعاته الطبيعية والاصطناعية، تتخللها مبان لكليات الجامعة وإداراتها ومكاتبها ولسكن الطلاب والأهالي، وللمتاجر والمحال التي تعتاش على الجامعة، أساتذة وطلاباً وحياة علمية. وإذا كانت المدينة تخلو من المتاجر الضخمة الشهيرة في لندن والتي تعلو في الفضاء في أربع أو خمس طبقات، فإن تلك المتاجر تفتح فروعاً صغيرة لها وللشركات الكبرى. وفي الوقت نفسه تتفوق على غيرها من المدن البريطانية، بما فيها لندن، بأربع مسرحها التجريبي، الذي يعرض أشهر المسرحيات قبل أن تنتقل إلى المسارح اللندنية في ضوء تعليق النقاد الفنيين وملاحظاتهم. ومكتباتها وهما من أشهر مكتبات العالم التجارية بوز أند بوز وهفرز. والمكتبة المركزية في الجامعة التي هي واحدة من أغنى ثلاث مكتبات جامعية في بريطانيا. ومطبعتها الجامعية التي لا تتعهد بنشر أي مخطوط إذا لم يكن مؤهلاً للجوائز العلمية الكبرى.

القاهرة: ذكريات ولقاءات مع عبد الناصر

ذكريات القاهرة كثيرة. زرتها أول مرة مطلع 1954، وتكررت الزيارات في الخمسين سنة وتعددت وتحوّل بعضها إلى إقامات غير قصيرة، فعرفت المدينة وناسها وأخبارها وطباعها أكثر من أية مدينة عربية أخرى. بل كنت أعرف القاهرة معرفة وثيقة قبل أن أزورها. منذ مطلع الأربعينيات والقاهرة صفحة من الأخبار والمعلومات أقرأها بسهولة وبتفاصيل من خلال عشرات الصحف والمجلات التي كان يتاح لي الاطلاع عليها وأنا بعد في الصفوف الابتدائية في طبريا. ربما كنت أعرف عن المدينة وأهلها، سياسييها وكتّابها ومثقفيها، أكثر مما كان يعرف الكثيرون من الطلاب الابتدائيين في مصر نفسها آنذاك. أعرف أن عند توفيق الحكيم حماراً وعند حافظ رمضان كلباً وأن حافظ عفيفي يدخن الغليون وأحمد عبود يدخن السيجار ومصطفى أمين لا تنزل السيجارة عن شفتيه والدكتور علوش لا يدخن أبداً. أعرف من هو الذي يوقع مقالاته بالملحوس أو مصمص. أعرف عن أناقة محمد التابعي ودرية شفيق. أعرف شخصية ابن البلد لرخا والمصري أفندي لصاروخان. أعرف خطوط نجيب هواويني وسيد إبراهيم. أعرف تنافس الأهلي مع الزمالك والرسالة مع الثقافة والوفديين مع السعديين والإخوان المسلمين مع الشبان المسلمين. أعرف ماذا يعني قصر الدوبارة ولاظوغلي وأنشاص والليمان طرة. أعرف لماذا كانت الفتيات على شواطئ الإسكندرية يخفن من نبوية موسى، ولماذا لقب زكي مبارك بالدكتور، وصفية زغلول بأم المصريين، ولماذا حاصر السير مايلز لامبسن قصر عابدين بالدبابات. أعرف كيف قتلت أسمهان وأحمد ماهر وأحمد حسنين وأمين عثمان وحكمدار القاهرة لي ستاك وكيف وقع سامي صليب ميتاً وهو يخطب في البرلمان. أعرف الكثير عن أخنوخ فانوس والبدراوي عاشور وتوجو مزراحي ودريني خشبة وسيزا نبراوي وقوت القلوب الدمرداشية وسابا حبشي ووديع فلسطين ... كل هؤلاء الأشخاص وهذه المواقع والأحداث عرفتها قبل أن أنزل في مطار القاهرة بأكثر من عشر سنوات. ومثلما عرفت لندن، قصر بكنغهام وساحة بيكاديللي وساعة بغ بن والباص الأحمر في طبقتين والشرطي على باب 10 داونغ ستريت قبل أن أزورها 1959 ، عرفت القاهرة حتى أني شعرت في 1954 أني أزور مكاناً لست غريباً عنه. عرفت مصر ما قبل عبد الناصر وعرفت مصر ما بعد عبد الناصر. لكن مصر عبد الناصر هي الأقرب إلى قلبي. أما مصر السابقة للناصرية، مصر البرجوازية الفاسدة، ومصر اللاحقة لعبد الناصر المتصالحة مع العدو فهما غريبتان عني. أما مصر عبد الناصر فهي مصر الأماني القومية ومصر النهضة والانبعاث.

بعد ساعات من وصولي القاهرة ونزولي في فندق نيتو كريس في شارع 26 يوليو كنت أركب الترولي إلى مصر الجديدة لأزور ابنة أسرة صديقة للعائلة. لم أشعر أني غريب. لم أسأل أحداً كيف أذهب إلى مصر الجديدة. كان كل شيء مألوفاً وكنت واثقاً من نفسي. القاهرة هي بلدي.

تمتاز الزيارة الأولى للقاهرة بأنها كانت مكافأة غير متوقعة لتخرجي في الجامعة في صيف العام السابق. فقد أرادت شركة طيران الشرق الأوسط أن تروّج لرحلاتها إلى مصر فأجرت يانصيباً بين متخرجي الجامعة الأميركية حوالى الأربعمئة في ذلك العام الدراسي، وفزت بالتذكرة إلى مصر ذهاباً وإياباً، والإقامة في فندق نيتو كريس على حساب الشركة. وما كان عليّ إلا تحديد موعد السفر في حدود سنة من تاريخ التخرج. وبالطبع كنت سعيداً جداً بالخبر. ولم يكن في نيتي ولا في إمكاناتي المالية أن أقوم برحلة أسبوعين إلى مصر مثل هذه. والواقع أن حظي باليانصيب لم يتكرر فيما بعد، في الخمسين سنة الأخيرة، إلا مرة واحدة. أقامت إحدى الجمعيات الخيرية يانصيباً على خارطة صغيرة لفلسطين مذهبة ومرصعة بالماس. وقال مقدّم البرامج في الحفل إنه يتمنى لو أني أنا أفوز بالجائزة، وفعلاً كنت أنا الفائز.

بالإضافة إلى زياراتي الأسبوعية لمصر في السنة الدراسية 1968ـ 1969 وإلى زياراتي نصف الشهرية، ذهبت إلى مصر خمسين مرة على الأقل في النصف الثاني من القرن الماضي. وعرفت معظم فنادقها الكبرى، سميراميس وهيلتون ومريديان وشيراتون وكونتنتال والإنتركونتيننتال ومينا هاوس والنيل. لكن الفندق الذي أصبحت جزءاً منه كان شبرد الذي وقعت في غرامه. كنت أشعر فيه أني من أهل البيت ولست زبوناً عابراً. هذا إلى جانب سكناي في بنسيون «التونسي» لفترة من الوقت. وكان زملائي أعضاء المجالس الوطنية الفلسطينية الذين اعتادوا النزول في فندق سكارابيه المتواضع يأخذون عليّ «أرستقراطيتي» بالتمسك بشبرد. كما كانوا يأخذون عليّ ترددي على مطعم غروبي ذي الأسعار المرتفعة بالنسبة إلى مطاعمهم التقليدية مثل أبو شقرا. والواقع أن مطاعم القاهرة التي يستطيع أن يأكل فيها الإنسان المعتاد على المطاعم اللبنانية قليلة عدا مطاعم الفنادق ذات النجوم الخمس. أستثني منها الدمياطي حيث الفلافل هي الوجبة الوحيدة تقريباً، وبعض مطاعم الهرم حيث يأكلك «البرغش» قبل أن تنهي طعامك اللذيذ، وصوفر الذي أسلم الروح وهو في عز شبابه.

مصر التي تتفوق على غيرها من الديار العربية هي مصر المسرح والمقهى السياسي والدار الصحافية والمتحف والحدائق العامة وضفاف النيل ودار الأوبرا والميادين الواسعة والشوارع العريضة والكورنيش الذي بناه عبد اللطيف بغدادي في أيام معدودة والجوامع والمساجد والتكايا والأبواب التي يختصر كل منها مئات السنين من التاريخ العربي. وهي أيضاً الأهرام وأبو الهول والكرنك وسد أسوان. مصر البلد العربي الوحيد الذي لو صرفت فيه شهراً تتجول بين معالمه لاضطررت أن تمدد إقامتك شهراً آخر.

جمال عبد الناصر، وجه مصر المعاصرة المشرق، أعظم ما في مصر بشخصه وبطولته وسيرته وإيمانه ونقائه. لقد أعطى بلده والوطن العربي أملاً وعزة وكرامة وهيبة ورونقاً فحوّل البلد إلى شيء آخر. وكما فقدت الناصرية بريقها بعد عبد الناصر، فاكتفت بجمال روح، كذلك فقدت القاهرة رونقها بعد عبد الناصر فأصبحت نوماً هانئاً بدون أحلام ذهبية.

قابلت عبد الناصر ثلاث مرات. وأنا نادم أني لم أسعَ إلى المزيد من المقابلات. وكلها تاريخية بالنسبة إليّ. كانت الأولى 1954، وكان ما زال «البكباشي» عبد الناصر، نائباً لمحمد نجيب. نصحني إحسان عبد القدوس بأني إذا كنت أريد التعرف إلى زعيم مصر الحقيقي فعليّ الذهاب إليه. وديرّ إحسان لي الموعد. وفي اليوم التالي ألقت المخابرات القبض على إحسان بسبب مقالات كتبها في «روز اليوسف» يدعو فيها إلى المزيد من الديموقراطية. وكانت الزيارة الثانية 1963. جئت إلى مصر من كمبردج بدعوة من الرئيس عبد الناصر ومكثت فيها شهراً كاملاً. جرت المقابلة في الإسكندرية، بعد خطابه في ذكرى 26 يوليو. بدأت المقابلة في منتصف الليل وامتدت حتى الساعات الأولى من الصباح. أما الثالثة فكانت بعد النكسة، آخر أيام عام 1969، وأراد أن يكرمني فدعاني وزوجتي لقضاء سهرة رأس السنة في أوبرج الهرم وسلمني بطاقتين ما زلت أحتفظ